



With thanks to the Schimmel Family for their generous sponsorship of Covenant & Conversation, dedicated in loving memory of Harry (Chaim) Schimmel.

The translation to Arabic was made possible through the generous funding of The Sir Naim Dangoor Centre for Universal Monotheism and the generous donation of Mr. Myron Joshua from Kfar Etzion.

"فَيَقْهِيل" هو النصّ الأسبوعي العاشر من كتاب "شموت" (سفر الخروج) ويبدأ هذا النصّ الأسبوعي بالآية الأولى من المقطع الخامس والثلاثين وينتهي بالآية العشرين من المقطع الثامن والثلاثين.

Arabic Translation by The Connecting Hamza NGO

بِنَاءُ الْفَرِيقِ

كيف يُمكنُ تحفيزِ شَعْبٍ مُحِبِّطٍ من جديد؟ وكيف يُمكنُ لِمَلْمُةٍ شَتَاتٍ أُمَّةٍ تَكْسَرَتْ أوصالُها؟ تلك كانت التحديات التي واجهها نبي الله ورسوله موسى/موشيه عند قراءة النصّ الأسبوعي "فَيَقْهِيل" من سفر شموت، أي سفر الخروج.

الكلمة المفتاحية في هذا النصّ، والتي يتمحور حولها موضوعه كلّ، هي "فَيَقْهِيل" أي "فَجَمَعَ". وتعني الكلمة العبرية "قَهِيلَه" الجماعة أو المجتمع. وتُستخدم كلمتا "قَهِيلَه" و"قَهَل" لوصف جماعة من الناس تجمّعا لغرضٍ مُعَيَّن، قد يكون إيجابياً أو سلبياً، بِنَاءً أو هَدَماً. واللافت أنّ هذه الكلمة التي يبدأ بها هذا النصّ التوراتي الأسبوعي باعتبارها بداية الحلّ، كانت هي الكلمة ذاتها التي ظهرت في النصّ الأسبوعي السابق، ولكن كبدايةٍ للمشكلة، كما ورد في الآية الأولى من المقطع الثاني والثلاثين من سفر الخروج:

"وَلَمَّا رَأَى الْقَوْمُ، أَنَّ مُوشِيَهَ قَدْ أَبْطَأَ أَنْ يَنْزِلَ مِنَ الْجَبَلِ، فَتَجَوَّقَ (فَيَقْهِيل) الْقَوْمُ عَلَى أَهَارُونَ، وَقَالُوا لَهُ، قُمْ اصْنَعْ لَنَا مَعْبُودًا، يَسِيرُ بَيْنَ يَدَيْنَا، فَإِنَّ ذَلِكَ الرَّجُلَ مُوشِيَهَ، الَّذِي أَصْعَدَنَا مِنْ بَلَدِ مِصْرَ، لَا نَعْلَمُ مَا كَانَ مِنْ أَمْرِهِ".

الفرق بين هذين النوعين من الـ"قَهِيلَه"، أي "الجماعة"، اللذين ظهرا في النصين التوراتيين، هو أنّ إحداهما تَخْلُقُ النِّظَامَ، والأخرى تُفْضِي إلى القوضى. فبعد أن يُخبرنا النصّ أن نبي الله ورسوله موسى/موشيه نزل من جبل سيناء ورأى العجل الذهبي، يَرِدُ في الآية الخامسة والعشرين من المقطع الثاني والثلاثين من سفر الخروج ما يلي:

"فَلَمَّا رَأَى مُوشِيَهَ الْقَوْمَ، أَنَّهُمْ مَكْشُوفُونَ (أي منفلتون)، إِذْ كَشَفَ أَهَارُونُ ذَوِي السَّانِ مِنْ مُقَاوِمِهِمْ (أي أطلق لهم العنان فأصبحوا مثار سخرية لأعدائهم)".

والفعلُ العبريَّ (بَرع/بروع) يعني "منفلت" أو "مُطلَق العِنان" أو "غير مُنضَبَط". وهنا يتم التمييز بين جماعتين: إحداهما جماعةٌ منضبطةٌ ومُنظمة، تعمل على تحقيق هدفٍ محدّدٍ؛ والأخرى جماعةٌ منفلتةٌ تتحوّل إلى حشدٍ جامحٍ له إرادةٌ خاصّةٌ تُغرِقُ أفرادَه في تيارٍ عاطفة. فحين تجتمعُ الحشود على هذا النحو، يَفْقِدُ الإنسانُ اتّزانَه، وينجرف في موجة الانفعال، ويفتقدُ إلى التروّي وتتعلّطُ عملياتُ التفكير الواعي والمُتأبّي لتحلّ محلّها المشاعر الغريزية الأكثر بدائية للجماعة، ويتم اختطاف العقل، وهو ما يُطلَق عليه علماء الأعصاب اليوم "اختطاف اللوزة الدماغية"، وحينها تندفع الأهواء الجامحة بلا رادع.

وقد عالجَ هذا الموضوعَ باحثون كثر: مثل تشارلز ماكي (Charles Mackay) في كتابه Extraordinary Popular Delusions and the Madness of Crowds, 1841 أي "أوهامٌ شعبيّةٌ استثنائيةٌ وجُنونُ الجماهير"، وغوستاف لوبون (Gustave Le Bon) في كتابه The Crowd: A Study of the Popular Mind, 1895 أي "سيكولوجية الجماهير"، وويلفريد تروتر (Wilfred Trotter) في كتابه Instincts of the Herd in Peace and War, 1914 أي "غرائزُ القطيع في السّلم والحرب". ومن أكثر الأعمال تأثيرًا وعمقًا حول هذا الموضوع كتاب Crowds and Power, 1960 أي الجماهير والسلطة للأديب اليهودي الحائز على جائزة نوبل، إلياس كانيتي (Elias Canetti)، وقد صدرت ترجمتهُ الإنجليزيّة عام 1962، وقد وُصف بأنّه من أكثر الكُتب التي تناولت هذا الموضوع تأثيرًا ووقعًا على النفس.

"فَيَقْهِيل" هو ردُّ نبيِّ الله ورسوله موسى¹ على تلك الفوضى العارمة التي استبدّت بالشعب عندما التقّوا حول أخيه أهارون/هارون الكاهن الأكبر وصنعوا العجل الذهبيّ. وقد كان ردُّه هذه المرّة مختلفًا ومدهشًا: فهو لم يعارض الشعب كما فعل أوّل مرّة حين نزل من الجبل وشاهد العجل الذهبيّ، بل استغلّ الدافع نفسه الذي ساقهم إلى الخطيئة، وحولّه إلى عملٍ صالح. فلقد أراد الشعب أن يصنعوا شيئًا يكون بمثابة علامةٍ على حضور الله عزّ وجلّ بينهم في وسط المخيم، لا بعيدًا عنهم على قَمّة الجبل. واستجابوا لذلك بسخاءٍ دفعهم إلى أن يُقدّموا حلّيتهم الذهبيّة. فقام نبيُّ الله ورسوله موسى بتوظيف هذا السخاء نفسه، لكن في موضع طاعة الله عزّ وجلّ هذه المرّة، بدلًا من الانقياد وراء مشاعرهم العفوية الخاصة كما في المرّة السابقة، فدعاهم إلى التبرّع طوعًا لبناء الـ"مِشكان"، وهو بيت العبادة المتنقل الذي بناه بنو إسرائيل وحملوه معهم في الصحراء، فأجزلوا العطاء بسخاءٍ شديد حتّى اضطرّ أن يأمرهم بالكفّ عن التبرّع.

والعبرة هنا عميقةٌ للغاية: إذا أردت أن تُوحّد الناسَ حولَ غايةٍ خيريّة، فأشركهم في بناء شيءٍ ما يُحقّق هذه الغاية. دَعُهُمْ يُنْجِزُونَ مَهْمَةً لا يُمكنُ لأيّ منهم أن يُنْجِزها بمُفرده، بل لا بُدَّ أن يتكاتفوا جميعهم معًا من أجل إنجازها.

وقد تجسّد هذا المبدأ في تجربةٍ اجتماعيّةٍ شهيرة أجراها عام 1954 أحد رواد علم النفس الاجتماعي مُظَفَّر شريف وفريقٌ من جامعة أوكلاهوما، عُرفت باسم "تجربة كهف روبرتز". أراد شريف أن يفهم ديناميكيات الصراع بين الجماعات وأسباب التحيز، فاختار هو وزملاؤه اثنين وعشرين صبيًّا أبيض في الحادية عشرة من عمرهم، ولم يكن أيّ منهم قد التقى بالآخر من قبل. وقد تمّ اصطحابهم إلى مُخَيِّم صيفيّ ناءٍ في متنزه كهف روبرتز بولاية أوكلاهوما، وقُسِّموا عشوائيًا إلى فريقين.

في البداية، لم يكن أيّ من الفريقين على علمٍ بوجود الفريق الآخر، إذ أقام كلُّ فريقٍ في أكواخٍ متباعدة. وقد خُصّص الأسبوعُ الأوّل لتعزير روح الجماعة بين أعضاء كلِّ فريق، حيث كانوا يسبحون ويتجولون معًا في الطبيعة، ثم اختار كلُّ فريق اسمًا ورمزًا له، فأصبح اسم الفريق الأوّل هو "النسور"، وأصبح اسم الفريق الثاني "الأفاعي المجلجلة"، وخطّ كلُّ منهما اسم فريقه على قمصانه وأعلامه.

1. أقول ذلك على سبيل المجاز، إذ إنّ بناء الـ"مِشكان" كان بأمرٍ إلهيٍّ لا باجتهادٍ من نبيِّ الله ورسوله موسى. والحقيقة أنّ هذا الأمر قد وردَ في أحد النصوص الأسبوعيّة السابقة، وهو نصُّ زُوماه، قبل قصّة العجل الذهبيّ، وكأنّ ذلك تجسيدٌ للتعليم الحاخاميّ القائل: "اللهُ يَخْلُقُ الدَّواءَ قبل الدَّاء". (باب "مغילה" 13ب).

ثم جرى تعريف الفريقين على بعضهما عبر سلسلة من المسابقات استمرت أربعة أيام، مُنِحت فيها كؤوس وميداليات للفائزين فقط دون الخاسرين. وسرعان ما نشأت التوترات بين الفريقين، فتبدلا الشتائم، وضايق أفراد كل فريق أفراد الفريق الآخر، وغنّوا أغاني تُسيء للطرف الآخر، حتّى وصل الأمر بكل فريق إلى إحراق علم الفريق الآخر، ومداومة أكواخه، ورفض تناول الطعام معه في قاعة واحدة.

بعد ذلك بدأت المرحلة الثالثة، التي أُطلق عليها اسم "مرحلة الدمج": حيث عُقدت جلسات مشتركة بين الفريقين، وشاهدوا الأفلام معًا، وأشعلا الألعاب النارية معًا احتفالًا بعيد الاستقلال الأمريكي في الرابع من تمّوز/يوليو. لقد كان القائمون على التجربة يأملون أن تُخفّف هذه اللقاءات من حدة العداء بين الفريقين وتؤدّي إلى المصالحة بينهما، غير أنّ ذلك لم يحدث، بل انتهى الأمر بهما في العديد من اللقاءات إلى التراشق بالطعام. ويظهر جليًّا هنا أنّ اللقاءات العابرة لوحدها لا تكفي لردم الهوة بين جماعات متخاصمة.

في المرحلة الرابعة، وضع الباحثون الفريقين أمام مشكلاتٍ مشتركة تُهدّدهما معًا، بحيث لا يستطيع أيّ فريق أن يحلّها بمفرده. ففي المرة الأولى تعطلّت إمدادات المياه في المخيم، فاكتشف كلُّ فريق الخلل على حدة، ثم اجتمعا معًا عند موضع الانسداد، وعملوا يدًا بيد على إصلاحه، واحتفل الفريقان بإنجازهما المشترك. وفي المرة الثانية أراد الفريقان مشاهدة بعض الأفلام، فأخبرهما الباحثون أنّ استئجار أفلام يتطلب دفع مالٍ، وأنّ أموال المخيم لا تكفي لذلك، فاتفق كلُّ من الفريقين على المساهمة من أموالهما بالتساوي. وفي المرة الثالثة تعطلّت الشاحنة التي تقلّ أعضاء الفريقين، فاضطّروا جميعًا إلى أن يدفعوها معًا حتى تتحرّك. وبحلول نهاية التجربة زال التوتر، وتلاشت الصور الذهنية السلبية التي كوّنها أعضاء كل فريق عن الآخر، حتّى إنّ أحد الفريقين، أثناء رحلتهما الأخيرة معًا في الحافلة في الطريق إلى المنزل، أنفق مالَ جائزته ليشترى مشروبات لجميع الأولاد في الحافلة دون أن يلتفت إلى أيّ فوارق بين المجموعتين.

وقد ظهرت نتائج مشابهة في دراساتٍ أخرى، وما يمكن أن نستخلصه من جميع هذه الدراسات هو أمرٌ ثوريٌّ حقًّا: أنّ بوسعنا تحويل الفرق التي تعادي بعضها بعضًا إلى مجموعة واحدة متماسكة، طالما واجهت هذه الفرق تحدياتٍ مشتركة يستطيعون جميعًا أن يتغلبوا عليها معًا، دون أن يستطيع أيّ فريق التغلب عليها بمفرده.

ومن هنا يمكن أن نفهم ما قصده الحاخام نورمان لام، الرئيس السابق لجامعة يشيفا، بقوله إنّه لا يعرف نكتة في ال"مِشناه" إلّا هذه: "العلماء يُكثرون السلام في العالم" (باب "برخوت" 64 أ). فكيف يُمكن أن يُقال عن العلماء، والمقصود بهم هنا الحاخامات، إنهم يُكثرون السلام، وهم مشهورون بالاختلاف والجدل؟ أجيب أنّ العبارة ليست نكتة بل حقيقة مُحكمة، ويتجلّى لنا معناها عند إتمام قراءة النصّ حيث يُستشهد بقول النبي يشعياهو/إشعيا في الآية الثالثة عشرة من المقطع الرابع والخمسين من سفر إشعيا: "وَكُلُّ بَنِيكَ تَلَامِيذُ الرَّبِّ، وَسَلَامٌ بَيْنِيكَ كَثِيرٌ". وهنا تكمن الدقّة: فالكلمة العبريّة التي تُستخدَم بمعنى "الأبناء" هي "بنايخ"، أي "أبناؤك"، وهي قريبة من الكلمة العربيّة "بنيك" الواردة في الآية السابقة بمعنى "أبناؤك"، غير أنّه إذا غيّرنا حركات الكلمة العبريّة يُمكن أن تُقرأ "بونايخ"، أي "بناؤوك" لا "أبناؤوك".* ومن هنا نفهم بعمق هذا اللّعب الدلاليّ الذي يربط بين طلبّة التوراة والبناء وصناعة السلام: فحين يُصبح العلماء بنّائين فإنهم يصنعون السلام، وإذا أردت أن تُحوّل جماعة من الأفراد الذين يمتلكون استقلالاً فرديًّا كبيرًا إلى مجتمعٍ متماسك، عليك أن تجعلهم بنّائين.

*ملاحظة توضيحية من المُترجم: النصّ العبريّ الأصليّ كان خاليًا من علامات التشكيل (الحركات)، الأمر الذي أتاح قراءته بطريقتين: "بنايخ" أي "أبناؤوك"، أو "بونايخ" أي "بناؤوك". ومن هنا جاء التأويل الحاخاميّ الذي يربط بين طلبّة التوراة والبناء وصناعة السلام.

وبذلك يتّضح لنا الخيطُ الواصل بين عِلْم الاجتماع والحكمة التوراتيّة: فالمبدأ الذي أثبتته تجربةُ كهف روبرز هو بعينه ما فعله نبيُّ الله ورسوله موسى في النصِّ التوراتيّ الأسبوعي "فَيَقْهِيْل". فإعادةُ بناء الجماعة، حتّى بعد كارثةِ العِجل الذهبيّ، ليست سرّاً غامضاً ولا معجزةً سماويّة، وإنّما تتّم عبر تكليف الجماعة بمهمّةٍ تحاكي شَغْفهم، ويستحيل على أيّ جزءٍ من الجماعة إنجازها بمفرده. ولا بُدّ أن تكون هذه المهمّة عملاً بَناءً، يسمح لكلِّ فردٍ أن يَضَع بصمته الفريدة، وأن يشعر بأنّ جهوده مُقدّرة. عندها فقط يستطيع كلُّ واحدٍ أن يقول بفخر: أنا ساهمتُ في صنع هذا.

وهذا بالضبط ما أدركه وقام به نبيُّ الله ورسوله موسى، إذ كان يُدرك هذه الحقيقة التي تقول: إذا أردتَ بناء فريقٍ، فَكَوِّنْ فريقاً يَبْنِي.

Arabic Translation by The Connecting Hamza NGO

Sponsored by The Sir Naim Dangoor Centre for Universal Monotheism, Bar Ilan University and the generous donation of Mr. Myron Joshua from Kfar Etzion



f t i n | RABBISACKS.ORG